

الملتقى الدولي حول إشكالية الماء في التهيئة والتنمية الصحراوية 23-25 نوفمبر 1996 - أدرار -

تنتشر عشرات القصور في
هضاب وصحراء الجزائر. يعود
أقدمها إلى القرن الرابع الميلادي.
استمر ازدهار هذه القصور حتى
لسنوات مضت حيث يلاحظ
تدهورها نتيجة هجرة السكان منها.
لم تبنى المدن والقصور نتيجة
لرغبات شخصية، بل وجدت
وازدهرت هذه المدن والقصور
لضرورات حضارية.

الطبيعة لا تتسامح مع من يخرق
قوانينها ! فمن يضع شيئا غير
منسجم مع الطبيعة يعاقب من قبل
الإنسان أو أن الطبيعة نفسها
تعاقبه ! لذا لم تزدهر العديد من
المدن قديما التي بنيت لرغبات
ونزوات لحكام أو سلاطين إلا تلك
التي استطاعت أن تتعايش مع
الظروف اقتصاديا-اجتماعيا
وحضاريا بشكل عام.

التجمعات البشرية في الصحراء
(قبائل رحّل) التي كانت تعتمد على
طرق تنقل منتظمة ما بين عمق

الصحراء ومدن الساحل هي التي
ساهمت في ازدهار المدن والقصور
الصحراوية. فرحلة الشتاء إلى عمق
الصحراء وراء المناخ الملائم والمراعي
كان يعني جلب المؤن والاستعداد
للرحيل المعاكس للشمال بعد الرعي
الجيد للماشية مع مطلع الصيف.
هذا التنقل كان يستدعي تواجد
محطات راحة وتموين، محطات
للتبادل التجاري أيضا وكان ذلك
تفسير ازدهار القصور وسكانها.
لكن التطور، أي تطور خاصة في
الصحراء يعني بالضرورة توفر المياه،
فلا حضارة دون ماء. والتاريخ
يشهد أن أول وأعظم الحضارات
الإنسانية كانت في أحواض الأنهار
العظيمة في دجلة والفرات والنيل
والسند وغيرها. المواجهة مع الطبيعة
في الصحراء كانت أكثر قساوة
بسبب ندرة المياه. فكانت الفقارة
التي تعتبر بحق العمود الفقري لحياة
القصور وأفضل وأروع مثال للعمل
الجماعي التعاوني المعروف في
الصحراء.

إنشاء الفقارة والتعرف على
أسلوب تقسيم وتوزيع المياه أمر في
غاية الروعة فلا غرابة أن تعتبر

الفقارة أحد مقدسات رجل الصحراء فيحرّم تخريبها أو إهمالها.

الملتقى أكد على هذا الجانب الهام من دور الفقارة في ازدهار حياة المجتمع الصحراوي وتعرض إلى أسس بناء الفقارة وأنواعها وأماكن تواجدها. في الجانب الآخر تطرق إلى الأسباب التي أدت أن تتحول الفقارة إلى تراث... إلى ماض وأغلبها جفّ أو أهمل لأنّ الفقارة استسلمت لواقع جديد، واقع استعمال الماكنة والتطور التكنولوجي.

عدة آراء طرحت لتفسير هذا التدهور. معظمها كان عاطفي انطلق من ضرورة الحفاظ على الفقارة حرصا على أدامة القصور أي أنّ نهاية الفقارة أدت إلى هجرة القصور... في حين الظاهر هو العكس !

مع الاحترام لكل الآراء التي طرحت في الملتقى، لكنني أعتقد أن الأمر هو أبعد من هذا، فالفقارة كنشاط اجتماعي-اقتصادي كان لها دورا متميزا مع طرق العمل والتكنولوجيا البدائية التي كانت سائدة في الصحراء. لكن هذه

الطرق لم تستطع أن تصمد أمام موجة التطور الواسع في كل النشاطات العلمية والتكنولوجية في العالم. فوصول بوادر هذا التطور إلى مدن وقصور الصحراء مع برامج التنمية ما بعد الاستقلال ولأنّ طرق العمل كانت ومازالت بدائية لم تتطور بشكل منسجم لكي تتقبل الأساليب الجديدة.

لذلك كله وقفت الفقارة عاجزة عن مسايرة ميكانيزمات المجتمع الجديد، هذا لا يعني أن الفقارة دليل التخلف... بل لأنّ الاحتلال العثماني وبعده الاستعمار لم يهتم بتطويرها... وقد يكون ذلك أمرا متعمدا للحفاظ على مجتمع متخلف. وتابع ولا يستطيع تدبير أموره دون السلطة الاستعمارية وهذا أحد أهم الاستعمار.

هل علينا أن ننسى الفقارة إذن؟ إطلاقا كلا. فالفقارة هي وغيرها من أساليب العمل وتقاليده المجتمع وتراثه هي جزء هام من الهوية الوطنية للمجتمع وغير صحيح أن كل هذا التراث أصبح رهن الماضي. بل أن الشخصية المعاصرة تستدعي أن يكون لها

المشاركون من مديرية الثقافة والولاية
والمواطنين.

جاسم الدباغ*

خلفية وماض مزدهر. المجتمع في
البلدان المتقدمة اليوم يعتز بماضيه
وتراثه ويحافظ بشتى السبل
لاستمراره ونحن نملك بدون مغالاة
ماض أكثر ازدهارا وأغنى وأعمق.
واليابان مثال واضح أمامنا. الياباني
يتعامل اليوم مع أرقى وأعقد ما
أنتجته البشرية كلها لكنه حريص
على ممارسة تقاليد العنايه بتراثه
واستمراره ليس في السكن فحسب
بل أيضا في العمل ودقائق حياته
اليومية. لدينا أمثلة هامة في قصور
وادي ميزاب يمكن الاستفادة منها.

شارك في الملتقى العديد من
الباحثين والأساتذة الجامعيين
والمهتمين والعاملين في مجال الثقافة
والجمعيات المحلية وقدمت العديد
من الدراسات والمداخلات إضافة
إلى زيارة موقعية لقصر تمنطيط كما
التقى المشاركون بفرق موسيقية
فولكلورية.

جهود مركز البحث في
الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية
في وهران كانت جهودا متميزة في
التحضير والتنسيق والتنظيم إضافة
للضيافة الدافئة التي شعر بها

* مهندس معماري، USTO